

ظاهرة حجاب المرأة

فى الأدب الجاهلى

تأليف:

د./ زينب محمد صبري بيره جكلي
أستاذ اللغة العربية وعلومها بكلية الآداب
جامعة الشارقة




رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



ظاهرة حجاب المرأة
فى
الأدب الجاهلى

إعداد
د./ زينب محمد صبرى بيره جكلى
أستاذ اللغة العربية وعلومها بكلية الأداب
جامعة الشارقة

مكتبة البلد الأمين
١١١ درب الأتراك خلف مسجد الأزهر
ت : ٥١٢٤٨٨٢ ٥٤١٣٧٠٣

الطبعة الثانية

١٤٢٠هـ — ٢٠٠٠م

طبعة خاصة لمكتبة البلد الأمين بالقاهرة

بإذن من المؤلف

رقم الإيداع ١٩٠٧/٢٠٠٠

الترقيم الدولى 977-59-28-31-1

مكتبة البلد الأمين

١١١ درب الأتراك - خلف مسجد الأزهر

ت : ٥١٢٤٨٨٢ - ٥٤١٣٧٠٣

هذا الكتاب كان بحثاً فى مجلة الأحمدية

العدد الأول ، وقد سمح بنشره لمكتبة البلد الأمين بإذن خاص



ظاهرة حجاب المرأة في الأدب الجاهلي

د . زينب محمد صبري بيره جكلي *

ملخص البحث :

ظاهرة حجاب المرأة في الأدب الجاهلي أمر لم ينتبه إليه الدارسون من قبل ، وقد أثبتّ من خلال هذا البحث وجود الحجاب في العصر الجاهلي ، إذ بدا في أقوال الشعراء ، وأخبار الرواة ، بشكل غير مباشر تارة ، وصريح تارة أخرى ، حين ذكر الشعراء الخمار والنَّصِيف والقناع والبُرْقُع واللِّثام ، أغطيةً للرأس ، والمِلاءة والجلباب والرَّيْطَة والإزار ، أكسيةً للجسم .

وعلّلْتُ وجود هذه الظاهرة ، فهي ــ برأيي ــ عرفٌ وتقليد لا شرع متبع ، ولعلها كانت بقية من بقايا الدين الحنيف ، أو نتيجة التأثر باليهود والنصارى الذين كانوا يجاورون العرب أو يعايشونهم ، وربما كان لغيرة الرجل وحياء المرأة أثر في ذلك .

---

* مدرّسة الأدب والنحو بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بدبي . ولدت بالرَّقَّة في سوريا سنة (١٣٦٦هـ / ١٩٤٦م) ، ونالت درجة الماجستير من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة سنة (١٣٩٨هـ / ١٩٧٧م) ، ثم درجة الدكتوراه من جامعة البنجاب في لاهور ـ الباكستان سنة (١٤١٦هـ / ١٩٩٥م) . ولها عدة مؤلفات وبحوث .



مُقَدِّمَة

الأدب مرآة للمجتمع ، ووسيلة للاطلاع على كثير من قضاياه الاجتماعية والسياسية ، والأدب الجاهلي ـ شعره ونثره ـ استطاع أن يكشف لنا عن ظاهرة لم يلتفت إليها الدارسون حتى يومنا هذا ، ألا وهي ظاهرة احتجاب المرأة في ذلك العصر ، وقد بدا هذا جلياً عند أكثر من ثلاثين شاعراً وقاصاً ، وفي موضوعات شتى ، ولا سيما موضوع الحرب والرثاء ، ثم رحيل الظعائن ؛ ولهذا رأيت أن أبيّن وجود هذه الظاهرة في ذلك العصر من خلال آدابه ، لعل القراء يدركون أن في الأدب الجاهلي حديثاً عفّاً عن المرأة ، وأن مجتمع ما قبل الإسلام كان يتمتع إلى حد كبير بمظاهر هذه العفة ، وأن المرأة المصون هي الأسمى في نظر أبنائه والأعلى شأناً ، وأن نزعها للحجاب في أيام الحرب أو الندب كان كافياً لأن يحرك في الرجل مشاعر الغيرة والحمية ؛ فيندفع لأخذ الثأر بروح مشبعة بالحقد على من نكّل بالرجال وأخرج النساء من خدورهن .

وسأوضح هذه الظاهرة متدرجة بشرحها ، فأبين أولاً ما يتعلق بها ، ثم أورد ما جاء منها بشكل مباشر وجليّ ، وأتحدث خلال ذلك عن أنواع الحجاب التي بدت في الشعر والنثر ، ولا سيما في الأخبار والحكايات التي توضح الأوضاع الاجتماعية والسياسية آنذاك ، ثم أبين أسباب وجودها في ذلك العهد كما أراها .

أولاً : إثبات هذه الظاهرة :

بدت كما ذكرت في أسلوبين بارزين من أساليب التعبير :

١ ـ التعبير غير المباشر :

عُرف العربي بغيرته على نسائه حتى كان يقول : « كل شيء مَهَهٌ ما خلا النساء وذكرهن » [1] ، وحتى وأد الكثيرون بناتهم حذراً من انحرافهن عن جادة الصواب كما هو معروف ومشهور ، وكانت الغيرة سبباً لطرد الشاعر « امرئ

---

(١) جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري : ١٣٩/٢ . ومَهَهٌ : يسير حسن ، وقد ورد المثال وشرحه أيضاً في : لسان العرب لابن منظور : ٥٤١/١٣ .

القيس » حين ذكر ابنة عمه فاطمة في معلقته ، فغضب عليه والده .. وقد أهدر دمه لتحديه أعراف المجتمع ، وتماديه في الحديث عن النساء، لكنه استنكر هذا على الرغم من أنه هو نفسه قد وأد بناته ، وقال يرد على من هدده متوعداً إياه بسيفه المشرفي وسهمه اللامع المتعطش للدماء ، ذي السنان الحاد كأنياب الغول ، مبيناً أن ما يذكره عن النساء لا يتعدى الحديث عن حسناوات يحاكين الغزلان الموجودات في قصور ملوك حمير :

أيقتُلني والمشرفي مضاجعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغوالِ [1]
وماذا عليه أنْ ذكرْتُ أوانساً كغزلان رمل في محاريب أقيال [2]

وهذه الغيرة دعت المجتمع الجاهلي إلى أن يعجب بالمرأة العفّة المصون ، وقد عبّر الشعراء عن هذا الإعجاب حين وصفوها بـ « الدرة المكنونة » ، و بأنها لا يستطاع الحصول عليها إلا بعد جهد جهيد ، وأنها « البيضة المخدرة » أو المخبأة في الهودج . يقول الأعشى متحدثاً عن فتاته : « درة في أعماق البحار ، لايصل إليها إلا غواص شهير يتجشم في سبيلها المصاعب، ويتعرض للأخطار » ، وكان همه مذ كان يافعاً أن يمتلكها ، ولكن مأمله هذا لم يتحقق إلا بعد ما كبرت سنه ، واضطربت مشيته ، ذلك لأن مارداً من مردة الشياطين كان يحرسها وهو مستعد لذلك ، إذ كان يخفيها بدرج لئلا تنالها يد ، وقد بالغ في حراستها وحُقّ له هذا ؛ لأن من يستطيع أن يحوزها سُعِد سعادة لا مثيل لها ، فكأنه قد عاش في نعيم الجنان :

---

(١) المشرفي : السيف المنسوب إلى مشارف الشام أو اليمن ، وينعت بالجودة . القاموس المحيط : (شرف) ، و طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي (٨٣/١) . و مسنونة زرق : سهام محددة الأزجة صافية ، وشبهها بأنياب الأغوال تشنيعاً لها ومبالغة في وصفها ؛ والأغوال الشياطين ، وإنما خص الشياطين لما شاع من عظيم أمرهم وكثرة نكرهم ، ولما ثبت في النفوس من شناعة خلقهم . ديوان امرئ القيس : ٣٣ - ٣٤.

(٢) أوانس : ممنوعة من الصرف ، صرفها للضرورة الشعرية . غزلان رمل : خصها لأنها أحسن من غيرها ، وهي الآرام منها. ديوان امرئ القيس : ٣٤ . محاريب : غرف : من قيْول كفيعل ، سمي بذلك لأنه يقول ما يشاء فينفذ . القاموس : (قول). والبيتان من ديوان امرئ القيس : ٣٣ - ٣٤ .

كأنها درّة زهراءُ أخرجها غواصُ دارينَ يخشى دونها الغرقا [1]

قد رامها حِجَجاً مُذْ طَرَّ شاربُه حتى تَسَعْسَعَ يرجوها وقد خَفَقا [2]

ومارِدٌ من غُواة الجن يحرسها ذو نِيْقَةٍ مستعدٌّ دونها تَرَقا [3]

من نالها نال خُلداً لاانقطاع له وما تمنى فأضحى ناعماً أَنِقا [4]

وأما « قيس بن الخطيم »[5] فقد جعل المرأة « درة مكنونة » لا يراها راءٍ إلا صاحبها ، فهي له وحده ، وهو الذي يمتّع ناظريه بمرآها بعد أن ينفرج عنها الصدف وينكشف غشاؤه ، فيبرز وجهها، يقول في ذلك :

كأنها دُرّةٌ أحاط بها الـ ـغوّاصُ يجلو عن وجهها الصدفُ [6]

---

(١) درة زهراء : بيضاء مشرقة . القاموس : (زهر) . دارين : ثغر في البحرين . والشرح من ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ص ٤٠٣ ، شرح وتعليق : د. محمد محمد حسين ، بتصرف .

(٢) رامها حججاً : طلبها سنين . القاموس : (حجّ) . طرّ شاربه : الغلام نبت شاربه . القاموس : (طرّ) . تسعسع : هرم واضطرب مشيه : القاموس : (سعّ) . خفق : اضطرب : لسان العرب : ٣٢/١.

(٣) ذو نيقة : من تنوّق الرجل وتنيّق : تجوّد وبالغ . والاسم النِيْقة : القاموس : (نوق) . ترق : شبيه بالدرج ، ديوان الأعشى : ٤٠٣ .

(٤) أنِق : فرِح : القاموس.: (أنق) ؛ والأبيات من ديوان الأعشى :٤٠٣ .

(٥) قيس بن الخطيم شاعر من شعراء الأوس في يثرب « المدينة المنورة »، كان بينه وبين حسان ابن ثابت وعبد الله بن رواحة معارك كلامية ومنافسات سياسية ، شعره جيد وأكثره في الحروب الدائرة بين الأوس والخزرج ، قُتل غدراً على يد الخزرج . ينظر لترجمته في : طبقات فحول الشعراء : ٢٢٨/١ ـ ٢٣١. وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني : ١/٣ ـ ٢٦ . و خزانة الأدب للبغدادي : ٣٤/٧ ـ ٣٧ . والأعلام للزركلي : ٢٠٥/٥.

(٦) ديوان قيس بن الخطيم ، تحقيق : ناصر الدين الأسد : ص ١١١ . وفي الأصمعيات لعبد الملك ابن قريب الأصمعي : ص ١٩٧ : « يجلو عن وجهها صدفُ » .

وأما « سعد بن مالك »[1] فهو يعجب بها أيضاً « بيضة مصونة » محاطة بالرعاية ، وهو يخاف عليها عار السبي إن اشتد وطيس الحرب ، أكثر مما يخاف على ماله أو متاعه ، وإن كان إبِلاً نشِطة في مرعاها ، يقول :

والحربُ لا يبقى لجا ... حِمِها التخيّلُ والمِراحْ [2]
فالهم بيضات الخدو ... ر هناك لاالنَّعَمُ المُراحْ [3]

فقوله : « فالهم بيضات الخدور » ، يشير إلى ما امتحن به القوم في نسائهم اللواتي كنّ مخدرات مصونات ، فغدا هذا الابتلاء همّاً لهم يفوق ما أصابهم في إبلهم المراحة في مراعيها ، وهذا التعبير يشير إلى شدة حرص المجتمع على نسائه ، وإعجابه بالمصونات في خدورهن وخوفه من سبيهنَّ .

و لم يكتف الشعراء بهذا التعبير ، وإنما جعلوها « مخدرة » في هودجها ، « فبشر ابن أبي خازم »[4] يصور صاحبته وهي تظعن مع الظاعنات المخدرات ، وكنّ فاتنات كأنهن تماثيل صنعاء :

كأن على الحدوج مخدرات ... دمى صنعاء خطّ لها مثال [5]

---

(١) سعد بن مالك شاعر جاهلي قديم ، كان جدّ طرفة بن العبد ، وكان فارساً حارب المهلهل ابن ربيعة سيد بني تغلب ، وفي القصيدة يفخر بشجاعته في يوم التحالق أحد أيام الجاهلية بين بكر وتغلب . ينظر لترجمته في : شرح ديوان الحماسة لأحمد بن محمد المرزوقي : ٢/٥٠٠ .

(٢) جاحمها : من الجحيم : مضرمها ، والجحيم هي النار الشديدة التأجج ، وكل نار بعضها فوق بعض : القاموس : (جحم) . والبيت كناية عن شدة الحرب ، وإزراء بمن تظاهر بالخيلاء ثم جبن في المعركة ، وفيه تعريض بعدوه .

(٣) النَّعم : الإبل أو الشياه ، أو خاص بالإبل : القاموس : (نعم) . المراح : المتروكة في المرعى ، أو النشيطة : القاموس : (مرح) . والبيتان من شرح ديوان الحماسة : ١/٥٠١–٥٠٥ .

(٤) بشر بن أبي خازم ، شاعر جاهلي و فارس ، عاصر عمرو بن هند ، ولقي حاتماً الطائي ، وهجا أوس بن حارثة الطائي ، فأقسم هذا ليحرقنّه إن قدر عليه ، فلما أسره عفا عنه ، فجعل بشر مكان كل قصيدة هجاء مديحاً له . قتل في غزوة له . ينظر لترجمته في طبقات الشعراء لابن قتيبة : ١/٢٧٠. وشرح اختيارات المفضل للخطيب التبريزي: ٣/١٣٧٩. وخزانة الأدب : ٤/٤٤١. والأعلام : ٢/٥٤.

(٥) الصورة في الشعر العربي لعلي البطل : ٦٥. وينظر لمثلها في الأغاني للمنخل اليشكري من بني بكر بن وائل . وقد قتله النعمان بن المنذر : ٢١/٦ . وأخبار المنخل في :٢١/٨١ .

بل إن « لبيد بن ربيعة العامري » يجعل الهودج الذي يقلّ فتاته محاطاً بستائر ليكون ذلك أبلغ في الستر ، فكأن فتاته غزال حلّت في كِناسها، وخلفته حزيناً وراءها ، يقول :

شاقتك ظُعن الحيّ لما تحملوا فتكنّسوا قُطُناً تصرُّ خيامُها [١]

من كل محفوف يُظِلُّ عِصيّه زوجٌ عليه كِلّةٌ وقِرامُها [٢]

وكانت المرأة عند رحيلها ترتدي ما يخفي محاسنها ، وهذه « جمرة بنت نوفل » زوجة الشاعر « النمر بن تولب »[٣] تظعن مع نساء القوم . وهن يرتدين ما يستر أجسادهن ، حتى بدت هذه الثياب لازمة لهن ، فكأنها الجلد بالنسبة إلى الأرانب ، وفي هذا دلالة قوية على ستر المرأة آنذاك ، يقول :

خَفِيّاتُ الشُّخوصِ وهن عِيْسٌ كأن جلودهنّ ثيابُ مَرْن [٤]

---

(١) تكنّسوا : من التكنّس : وهو الاستتار في الشجر ؛ لأن الظبي يكنس : أي يدخل في كِناسه وهو مستتره في الشجر، وهو يكنس الرمل حتى يصل ، القاموس : (كنس) . شبه الشاعر الهودج بالكناس ، والظعائن بالغزلان . قُطُناً : من قَطَنَ : أقام في المكان ، القاموس : (قطن) . تُصِرُّ : تصدر صوتاً ، القاموس: (صرَّ) . فكأن الهودج يصدر صوتاً عندما يهتز .

(٢) الزوج : النمط وهو ظِهارة فراش ، أو ضرب من البسط، وثوب صوف يطرح على الهودج ، القاموس: (زوج) ، والزوج يقال للديباج ، فقه اللغة لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي: فصل « في مثل الفُرُش » : ٢٦٣. ولسان العرب ، وروى البيت نفسه شاهداً . القِرام : الستر وما يغطى به الشيء ، فقه اللغة : ٢٦٣. وقيل ثوب يجعل فوق الفراش : شرح المعلقات العشر للتبريزي : ٢١٠، والبيتان من المرجع الأخير : ٢٠٩-٢١٠، وفي شرح المعلقات السبع للزوزني : ٢٤٢ : « حين تحملوا » .

(٣) النمر بن تولب شاعر جاهلي عاش مئتي سنة وأدرك الإسلام وأسلم . فارقته زوجته جمرة لتنال حريتها فحزن عليها كثيراً . ينظر لترجمته في طبقات فحول الشعراء : ١/١٥٩ ـ ١٦٠ . وطبقات الشعراء : ١/٣٠٩ . والأغاني : ٢٢/٢٧٣ . وخزانة الأدب : ١/٣٢١ .

(٤) منتهى الطلب لأبي غالب محمد بن المبارك بن ميمون : ١/٥٣ . وقد ورد البيت أيضاً في لسان العرب عند شرح كلمة مَرْن ـ وهي فيه : ضرب من الثياب ، وقال الجوهري : المرن : الفراء . وخفيات الشخوص: محجبات . عيس : جمع عيسة : بياض يخالطه شيء من الشقرة ـ وقيل : هو أبيض مشرب صفاء في ظلمة خفية ، وهي فُعْلة بالضم ، وليس في الألوان فِعْلة بالكسر ، وإنما كسر لتصح الياء : لسان العرب : مادة عيس .

وكذلك يفعل زهير بن أبي سلمى ، فهو حين يشبه الرجال بالنساء لا يرى من الصفات القوية الدالة عليهن إلا الحجاب يخفي مفاتنهن. فكأن إخفاءها لازمة من لوازم حياة المرأة . ولهذا يقول لآل حِصْن ـ حين يسألهم سؤال العارف الساخر أأنتم رجال أم نساء ؟ فإن كنتم نساء فعليكم ما عليهن من الحجاب ؛ لأن مَن يشبه بالشيء يكن مثله ، فاحتجبوا لتُهْدَوا إلى أزواجكم ـ :

وما أدري وسوف إخالُ أدري أقوم آل حِصنٍ أم نساءُ
فإن قالوا : النساءُ مخبآتٍ فحُقَّ لكل مُحْصَنَةٍ هِداء [1]

وكان من عادة الجاهليين حجب نسائهم ، ولذلك كان يعد خروجهن حاسرات أيام ندب القتلى أو الموتى أمراً عظيماً عندهم ، حتى إنهم يذكرونه في معرض الشماتة بالعدو ، كعلامة من علامات الهزيمة المنكرة ، وقد عبر الشاعر « المهلهل ابن ربيعة »[2] عن ذلك إبان حديثه عن قتله لبُجَيْر ابن عدوّه ، إذ أرداه صريعاً « يوم واردات » ، وأسال دمه كأخلاط الزعفران ، فخرجت نساء بني عُباد نادبات معولات بعد أن كنّ مصونات ، فشفى بذلك بعض غليل نفسه ، وإن كان قتل كليبٍ أخيه أمرّ وأقسى ، يقول في ذلك :

و إني قد تركتُ بواردات بُجَيراً في دمٍ مثل العَبيرِ [3]
هتكتُ به بيوت بني عُباد وبعض الغَشْم أشفى للصدورِ

---

(١) شرح ديوان زهير بن أبي سلمى لأبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب : ٧٣ ـ ٧٤ . ومنه المحصنة : ذات الزوج ، وهي أيضاً : البكر . وفي لسان العرب : (هدى) : الهِداء : الزوج ، واستشهد ببيت زهير الثاني .

(٢) المهلهل بن ربيعة : هو عدي بن ربيعة التغلبي ، شاعر جاهلي ، وهو خال الشاعر امرئ القيس ، وجد عمرو بن كلثوم . قتل بنو بكر أخاه كليباً ، فأشعل حرب البسوس للثأر منهم ، وقد دامت أربعين سنة ؛ قُتل المهلهل على يد آسره عمرو بن مالك أحد فرسان تغلب عطشاً . ينظر لترجمته في طبقات الشعراء: ٢٩٧/١ . العقد الفريد : ٦٩/٦ . خزانة الأدب : ١٦٤/٢ . وينظر لقصة الحرب في الأغاني : ٣٤/٥ . وفي القصة شاهد آخر على حجاب المرأة في العصر الجاهلي .

(٣) واردات : موضع عن يسار مكة ، كانت فيه موقعة بين بكر وتغلب . ينظر هذا اليوم في الأغاني : ٤١/٥. والعقد الفريد : ٧٤/٦ . العبير : أخلاط تجمع بالزعفران ، الصحاح : (عبر) . وفي لسان العرب : (عبر) : العبير نوع من الطيب ذو لون يجمع من أخلاط .

على أنْ ليس يُوْفِيْ من كليب إذا بَرَزَتْ مُخَبَّأةُ الخدور[1]

وهذه « لميس » إحدى نساء الشاعر « عمرو بن معد يكرب الزبيدي »[2] تخاف الأسر ؛ فتكشف عن وجهها حتى يخالها العدو أمة فيزهد في أسرها ، أو لعل الحرب أفزعتها فألهتها عن أن تستره . وكان كالقمر بهاءً ، وكان لا يبدو لأحد من قبل ، وقد ذهلت عن نفسها حين داهم العدو قبيلتها ، وفرّت بسرعة مع نساء قومها . حتى أثَّر وطْءُ أقدامهن الشديد على الأرض الصلبة ، ولما رآها الشاعر هكذا ثارت حميته واستبسل في الدفاع عنها . قال يصور هذا المشهد :

لما رأيتُ نساءنا يَفْحَصْنَ بالمَعْزاءِ شَدّا[3]

وبدتْ لميسُ كأنَّها بدرُ السماءِ إذا تَبَدّى

وبدت محاسنها التي تخفى وكان الأمر جِدا

نازلتُ كبشهم ولم أر من نزال الكبش بدا[4]

وقد شرح المرزوقي هذا البيت مشيراً إلى حجاب المرأة في ذلك العصر فقال : « وبرزت هذه المرأة كاشفة عن وجهها سافرة ، كأنها قد أرسلت نقابها ، ودلّ على هذا بقوله : « كأنها بدر السماء إذا تبدّى » ، وإنما فعلت ذلك لتتشبه بالإماء حتى تأمن السباء ، أو لما داخَلَها من الرعب ، وفي طريقته :

---

(١) الأغاني : ٥٣/٥ . والعقد الفريد : ٧٥/٦ . والغَشْم : الظلم ، القاموس : (غشم) .

(٢) عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، شاعر من فرسان العرب المعروفين بالبأس في الجاهلية ، أدرك الإسلام وقدم على الرسول ﷺ فأسلم . تنظر ترجمته في شرح ديوان الحماسة : ١٥٧/١ . وطبقات الشعراء : ٣٧٢/١ . والأغاني : ٢٠٨/١٥ .

(٣) يفحصن : يسرعن . القاموس : (فحص) . أو يؤثرن لشدة العدو : شرح ديوان الحماسة : ١٧٧/١ . المعزاء : الأرض الصلبة : القاموس : (معز) .

(٤) شرح ديوان الحماسة : ١٧٧/١-١٧٨ .

ونسوتكم في الروع بادٍ وجوهُها يُخَلْنَ إماءً والإماءُ حرائرُ [1]

وفي هذا البيت دلالة أخرى على ما نحن في صدده ، إذ كان الحجاب آنـذاك فضيلـة تمتاز به المرأة ، ولذلك عُدّ تركه عاراً يعيّر به العدو، والبيت كناية عن الهزيمـة، لأن المـرأة كانت إذا خافت السبي حسرت عن رأسها لتتشبه بالإماء فيزهد في سَبْيها.

٢ ـ التعبير المباشر والصريح :

قد يقول قائل : إن وصف المرأة بالدرة في صدفها ، أو بـالبيض المكنـون . والتعبير عنها بالمخبأة في خدرها ، أو بالساترة لمحاسنها ، لا يكفي للدلالة على وجود الحجاب في ذلك العهد ، وأقـول : إن الحجـاب بـدا في الشعـر الجـاهلي ونثره ، صريحـاً ومبـاشراً في عبارات لا تدع مجالاً للشك أبداً ، وبأسلوب سلبي تارة ، وإيجابي أخـرى، على نحـو مـا سأبين بإذن الله .

أ ـ الأسلوب السلبي :

وأعني به ما ذكر من حسـر الـرأس و إسـفار الوجـه صراحـة ، ولا سـيما في شعـر الحرب والرثاء ، فالمهلهل بن ربيعة يستنكر مثلاً أن تقتل « بكر» أخاه كليباً ، ثم تطلـب الصلح وأن تعود الإبل إلى مراعيها ، ويقسم بالله سبحانه الذي يحج الناس إلى بيته الحرام أنه لن يرضى بذلك حتى يفني « بكـراً » ويقتلـهم شـرّ قتلـة برماحـه الـتي يطعـن بـها في رؤوسهم وحتى تخرج نساؤهم للندب وقد كشفــن عـن شعورهـن ، ورحـن ينظـرن إلى اليتامى حزينات عليهم ، وهن يمسحن رؤوسهم بأيديهن ، يقول في ذلك :

قتلـوا كُليبـاً ثم قالـوا : إرْبَعُـوا كذبوا و ربِّ الحِلِّ و الإحرام [2]

---

(١) المرجع نفسه : ١٧٨ و ٢٣٧ ، والبيت لسَبْرَة بن عمرو الفَقْعَسِيّ ، شـاعر جـاهلي عاصـر النعمان بن المنذر ، وهو في هجاء ضَمْرة بن ضمرة الذي كان كذابـاً غـدّاراً ومقـامراً ، وكـان أول مـن ارتشى في الجاهلية ، وكان ضمرة قد أمر نساءه أن يكشفن وجوههن ويتأخرن ليظن العـدو أنـهن إمـاء فلا يسبيهن ، فهجاه الشاعر سبرة بذلـك . ينظر لذلـك في المرجـع نفسـه : ٢٣٧/١ ـ ٢٣٨ . وخزانـة الأدب : ٥٠٨/٩ ـ ٥١٠ .

(٢) إربعوا : كفوا وتحبسوا، وفعله ثلاثي ، وقطع همزة الوصل للشعر : أراد أنهم بعد قتلهم كليباً قال بعضـهم : كفـاكم مـا فعلتـم فلـم يعلمـوا مـا وراء ذلـك : الأصمعيـات : ١٥٦ . وفي القـاموس : (ربع) : أربعـت الإبـل سرحـت في المـرعـى وأكلت حيث شاءت وشربت ؛ والقول كناية عن الرغبـة في ترك الأخذ بـالثـأر .

حتى نُبيدَ قبيلةً وقبيلةً قهراً ونَفْلِقَ بالسيوفِ الهام

و يقمن رَبّات الخدور حواسراً يمسحن عَرْضَ ذوائِبِ الأيتام [1]

كما يصور حزنه الشديد لخروج النساء التغلبيات للندب . حاسرات الرؤوس إثر مقتل أخيه . بعدما هالهن المصاب الأليم . فجعلهن يندبنه بأصوات مرتفعة ، و يلطمن خدودهن ، ويدْمِيْنَها بأظافرهن . وقد أصابهن الذلّ والهوان . وكن يتوعدن القاتل وأهله . يقول مصوراً هذا المشهد في حزن وأسىً شديدين :

كنا نغار على العواتق أن تُرى بالأمس خارجةً عن الأوطانِ [2]

فخرجْن حين ثوى كُليبٌ حُسّراً مسْتنقعاتٍ بعده بهوانِ [3]

يَخْمِشْنَ من أُدْمِ الوجوه حواسراً من بعده . و يعِدْن بالأزمانِ [4]

وقد يقال : إنَّ « المهلهل » عاش في أرض تغلب القريبة من ديار الروم . ولعله تأثر في ذكر الحجاب بالنصارى ، ولكن « الرَّبيع بن زياد » [5] عاش في الجزيرة العربية وخالط عَبْساً وذبيان ، ورثى قتلى عبس في الحرب الكبيرة « داحس والغبراء » وتحدث خلال ذلك عن خروج النساء حُسَّراً إثر مقتل « مالك بن زهير العبسي » ، وبيّن أثر

---

(١) حواسراً ممنوعة من الصرف ، صرفها الشاعر للضرورة الشعرية . ذوائب : جمع ذؤابة وهي الشعر في أعلى الرأس ، القاموس : (ذأب) . والأبيات في الأصمعيات :١٥٦ . وفي البيت الثاني إقواء ولذلك ترك المحقق شكله .

(٢) العواتق : ذوات الكرم والجمال والنجابة ، والعاتق أيضاً : الجارية أول ما أدركت ، أو التي لم تتزوج بعد ، القاموس : (عتق) .

(٣) مستنقعات : من النقع ، وهو رفع الصوت وشق الجيب ، ونقع فلان فلاناً : شتمه شتماً قبيحاً ، واستنقع لونه : تغير ، القاموس : (نقع) .

(٤) يخمشن : يخدشن ويلطمن وجوههن ، القاموس : (خمش) ، والأبيات في ديوان الحماسة : ٩٩١/٢. والأغاني : ١٢٨/١٧ .

(٥) الربيع بن زياد العبسي ، شاعر جاهلي وفارس وكاتب ، ولذلك سمي بالكامل ، كان من دهاة العرب ، اتصل بالنعمان بن المنذر ونادمه ، ثم فسدت العلاقة بينهما فارتحل إلى ديار عبس ، وشارك في حرب داحس والغبراء . ينظر لترجمته في الأغاني : ١٧٩/١٧ . وشرح ديوان الحماسة : ٤٧١/٢ . وخزانة الأدب : ٣٦٧/٨ . والأعلام : ٣ / ٤ .

هذا النبأ على النفوس ، إذ أخرج النساء من خدورهن ، وكن يذهبن إلى الندب سحراً أو في مطلع النهار ، وقد كشفن عن شعورهن ، وأخذن يلطمن وجوههن فعزّ ذلك عليه وآلمه كثيراً فقال :

إني أرقْتُ فلم أُغمِّضْ حار — مِنْ سيِّئ النَّبأِ الجليل الساري
مِنْ مثله تمشي النساءُ حواسراً — وتقوم مُعْوِلَةً مع الأسحار [1]
من كان مسروراً بمقتل مالك — فَلْيَأْتِ ساحتَنا بوجه نهار [2]
يجد النساء حواسراً يَنْدُبْنَهُ — يَلْطِمْنَ أوجهَهُنّ بالأسحار [3]
قد كُنّ يخبأن الوجوه تستراً — فاليوم قد أبْرَزْن للنظار [4]

والبيت الأخير أوضح بيت يبين عن حال المرأة عند الندب ، وقد شرحه المرزوقي بقوله : « يصفهن بأنهن ابتذلن أنفسهن للمصيبة ، وكان من قبل ستر الصيانة مسبلاً عليهن ، لا يظهرن المعاري من الوجوه وسائر الأعضاء لأحد، لتسترهن وارتفاع محالهن ومناصيهن عن التبرج والتبرز، إذ كن بيضات خدور وربات جمال وستور »[5] .

وفي يوم «ذي قار» ، جاءت جيوش الفرس تغطي وجه الأرض لكثرتها . فكأنها الليل المظلم قد زحف فسدّ الآفاق وغشاها بالظلام ، وقد خرجت نساء العرب مع الجيش ، ورحن ينظرن إلى المعركة وقد تفطرت أكبادهن إشفاقاً من هول ما يرين وحذراً من الأسر ، ولهذا حَسَرْن عن خدودهن التي جرت عليها الدموع ، وغيّرها الحزن فعَلَتها غُبرة مظلمة ، أو لعل هول الموقف قد ألهاهن عن التستر ، يقول الأعشى مصوراً هذا ـ في معرض فخره بانتصار العرب على الفرس في هذا اليوم المشهود ـ :

---

(١) مُعْوِلة : من أعول وهو أن يرفع الصوت بالبكاء والصياح ، القاموس : (عول) .

(٢) وجه النهار : أوله : القاموس : (وجه) .

(٣) ورد الشطر الثاني في خزانة الأدب : ٣٦٩/٨ : « يندبن بين عوانس وعذار » .

(٤) الأغاني : ١٢٨/٧ . وشرح ديوان الحماسة : ٤٧١/٢ و ٩٩١/٢ ـ ٩٩٥ . وخزانة الأدب : ٣٦٩/٨.

(٥) شرح ديوان الحماسة : ٩٩٦/٢ .

لما أتَوْنا كأن الليل يقدمهم — مُطَبِّقَ الأرض يغشاها بهم سدف [1]

وظُعْننا خلفنا كُحْلاً مدامِعُها — أكبادُها وُجُفٌ مما ترى تَجِفُ

حواسِرٌ عن خدودٍ عاينَتْ عِبَراً — ولاحَها وعَلاها غُبْرَةٌ كُسُفُ [2]

فالنساء كعادتهن في الحروب . كشفن عن وجوههن بعد أن كن يستُرْنها اتقاء للسبي ، وهذا يدل على أنهن لم يكن يفعلن هذا في السلم ، أو في الظروف المعتادة ، أو كأن الحَسْر يحرك في الرجال مشاعر الغيرة ؛ فيندفعون لحماية النساء من الأسر ، قال عنترة يفخر بذلك في قصيدة يتحدّث فيها عن إغارته على بني ضبّة :

وهمُ الحماةُ إذا النساءُ تَحَسَّرت — يومَ الحفاظِ وكان يومَ نِزالِ [3]

ب ـ الأسلوب الإيجابي :

و هو أن تأتي ألفاظ الحجاب صريحة مباشرة ، وقد كثر ورودها في الشعر الجاهلي ، و عرفنا من خلالها أن الحجاب في ذلك العصر كان متعدد الأنواع ، فهناك الخمار ، والنصيف [4] ، و القناع [5] ،

---

(١) مطبق الأرض : من طبق وهو غطاء كل شيء ، ووجه الأرض ، وطبّق الشيء : عمّه ، القاموس : (طبق). سدف : بالفتح ، ويضم : الظلمة والضوء ، سميا بذلك لأن كلاًّ منهما يأتي على الآخر ، أو اختلاط الضوء والظلمة معاً ، القاموس : (سدف) . والمقصود هنا هو الظلام ، وقد شبه به جيش العدو لكثرته .

(٢) غُبْرة ـ بالضم ـ : لون الغبار . القاموس : (غبر) ، والأبيات في ديوان الأعشى : ٣٤٧ .

(٣) ديوان عنترة ـ تحقيق : محمد سعيد مولوي ـ : ص ٣٣٨ .

(٤) النصيف : هو الخمار ، أو ثوب تتجلّل به المرأة فوق ثيابها كلها ، سمي نصيفاً لأنه نَصَفَ بينها وبين الناس فحجز أبصارهم عنها ، وقيل : نَصَف المرأة : مِعْجرها ، وهو ما تلفه على استدارة رأسها ، ثم تجلبب فوقها بجلبابها . القاموس وتاج العروس : (نصف) .

(٥) القناع : من المِقْنَع والمِقْنَعَة : ما تقنّع به المرأة رأسها ، والقناع أوسع من المقنعة : تاج العروس ، والقاموس : (قنع) .

و البـرقـع [١] ، واللـثـام [٢] ، أغطية للرأس والوجه . قال الثعالبي : « البُخْنُـقُ خرقـة تلبسها المرأة . فتغطي بـها رأسها ما قَبَل منها وما دَبَر غير وسط رأسـها ، ثـم الغِفـارة فوقها ودون الخمار ، ثم الخمار أكبر منها ، ثم النصيف هو كالوسط مـن الـرداء ، ثـم المِقْنَعَة ، ثم المِعْجَر ، وهو أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة . ثم الرداء »[٣] .

وهناك المِلاءة [٤] ، والجلباب ، والرَّيْطة [٥] ، والإزار ، أكسية تستر بها المرأة بدنـها حين خروجها أو رحيلها .

وقد ظهر القناع في قول « الحارث بن حِلِّزة اليشكري » [٦] :

فضعي قِناعك إنَّ ريْـب الدهر قد أفنى معدّا [٧]

فقد استعمل الشاعر كلمة القناع كناية عن التخفي في الأمور ، فكأن القناع أمر لازم للمرأة صارت تعرف بـه ، وهـذا ما عبر عنه أيضاً الشاعر « عتبة بـن بُجير الحـارثي » [٨]

---

(١) البرقع : يكون للنساء والدواب ، وبرقعه : ألبسه إياه : القاموس (برع) .

(٢) اللثام : ما يوضع على الفم من نقاب ، ولثمتْ والتثمتْ : شدتـه ، وهـي حسـنة اللثـم : رد المرأة قناعها على أنفها ، القاموس : (لثم) .

(٣) فقه اللغة : ٢٦١ .

(٤) الملاءة : الرَّيْطة . القاموس : (ملأ) .

(٥) الرّيطة : الإزار إذا جمعت أطرافـه وطـوي : لسـان العـرب : (ريـط) ، أو هـو المـلاءة ، لـذا كانت من قطعة واحدة وكلها نسـج واحـد ، والجمـع الريـط ، وقـال الأزهـري : لا تكـون الريطـة إلا بيضاء ، لسان العرب : (ريط) ، وطبقات الشعراء : ٢٨٣ . وفي فقه اللغة : ٢٦٠ : الريطـة مـلاءة مـن نسج واحد ولاتكون إلا بيضاء ، ولا تكون الحُلة إلا ثوبين . وفي القاموس : (ريط) : الريطة كل مـلاءة غير ذات لفقين ، كلها نسج واحد وقطعة واحدة ، والجمع الريط .

(٦) الحارث بن حِلِزة اليشـكري : شاعـر جـاهلي يكنـى بـأبي ظليـم ، كـان سيـد قومـه ، وناظـر عمرو بن كلثوم فغلبه ، وأُعجب عمرو بن هنـد بمعلقتـه . تنظـر ترجمتـه في طبقـات الشعـراء : ١٩٧ ـ ١٩٨. والأغاني : ١١/٣٤ . وشرح المعلقات العشر : ٣٦٨ . والسبع : ٢٠٥ .

(٧) الأغاني : ١١/٣٤ .

(٨) عتبة بن بجير الحارثي ، شاعر جاهلي من بني الحارث بن كعب . تنظر ترجمته في شرح ديوان الحماسة : ١٥٥٧ هـ٢ . ولعروة بن الورد بيت مثله في ديوانه : ٤٩ .

حين كنى عن المرأة بالغزال المقنّع . وذلك في معرض حديثه عن إكرام الضيف وعدم انشغاله عنه بالنساء . قال :

لِحافي لحافُ الضيفِ والبيتُ بيتُه ولم يُلْهِني عنه غزالٌ مقنَّع [١]

وقد عرض علينا الشاعر « الشنفرى »[٢] الصفات التي تتمتع بها المرأة العربية . والتي كانت تنال بها إعجاب الرجل ، وكان من هذه الصفات أنها ذات قناع . وأنها لا تتلّفت يمنة ويسرة حينما تمشي . بل تغض طرفها وتطرق رأسها إلى الأرض حياء . كأنها تبحث عن شيء فقدته . ومثل هذه المرأة يبيت زوجها مطمئن البال لعفافها . وهي إن تحدّث رجلاً تقطّع كلامها لما يعتريها من الخجل . وبهذا يشير إلى إعجاب الرجل بالجمال المعنوي من حياء ونقاء ، إلى جانب إعجابه بالجمال المادي . يقول في ذلك :

لقد أعجبَتْني لا سَقوطاً قناعُها إذا ما مشَتْ ولا بذات تَلَفُّتِ
تحلُّ بمَنْجاةٍ من اللوم بيتُها إذا ما بيوتٌ بالملامة حلّت
كأن لها في الأرض نِسْياً تقصُّه إذا ما مشت وإن تُحدِّثك تَبْلَتِ [٣]

وكانت عبلة ذات قناع تسدله إن رأت رجلاً ، وإن كان ابن عمها عنترة . وقد عاتبها على ذلك لأن تصرفها يشير إلى رفضها الزواج منه ، و بين لها أنه الفارس الحاذق الذي يبطش بأعدائه الأقوياء ؛ فهو جدير بالزواج منها :

إن تُغْدِفي دوني القناع فإنني طبٌّ بأخذ الفارس المُستَلْئِمِ [٤]

---

(١) شرح ديوان الحماسة : ١٧١٩/٤ .

(٢) الشنفرى : ثابت بن أوس الأزدي ، صعلوك نشأ في بني سلامان الذين أسروه ، فلما شبّ وعرف الحقيقة حاول الانتقام منهم فقتلوه . كان من عدائي العرب ، وهو صاحب اللامية المعروفة بلامية العرب . ينظر لترجمته في الأغاني : ١٧٩/٢١ . والخزانة : ٣٤٠/٣ .

(٣) الأغاني : ١٨٧/٢١ . شرح اختيارات المفضل : ٥١٥/١-٥١٧ . والنِّسي : المنسِيّ : القاموس : (نسي) ، تَبْلَت : أي الكلام ، وتقطعه بما يعتريها من البهم : اللسان : (بلت) . يشير بذلك إلى حيائها عندما تتكلم مع الرجال .

(٤) إغداف القناع : إرخاؤه على الوجه : القاموس : (غدف) . الطَّبُّ : الماهر الحاذق بعمله : القاموس : (طبب). المستلئم : من استلأم : لبس لأمة الدرع : القاموس : (لأم) . والبيت في ديوان عنترة : ٢٠٥ ، وشرح القصائد العشر : ٢٨٩ .

وكانت صاحبة « النّمر بن تولَب » ذات نقاب . وهو هٰذا يثني عليها . ويأسى لفراقها إياه بحيلة فكرت بها لتعود إلى أهلها فتنال حريتها . وهو يدعو عليها أن يجازيها الله على فعلها هذا . وكانت قد ملكت عليه قلبه بوجهها المشرق الوضاء الذي كانت تستره فلا تبدي منه إلا عيناً واحدة . يقول في ذلك :

جزى الله عنا جَمْرَةَ بنة نوفل   جزاءَ مُغِلٍّ بالأمانة كاذبِ [1]

وصدَّتْ كأن الشمسَ تحت حجابِها   بدا حاجبٌ منها وضنَّتْ بحاجب [2]

وبرز هذا الحجاب أيضاً في شعر « قيس بن الخطيم » ، في قصيدة ناقض فيها حسان بن ثابت في جاهليته ، وفخر بانتصار الأوس قبيلته ، على الخزرج قبيلة حسان ، وذلك في «يوم بعاث» [3] ؛ وقد شبب في مطلعها بعَمْرة الأوسية زوج حسان بن ثابت ، وذكر أن أطلال ديارها غدت كالخطوط المذهبة إثر رحيلها عنها ، وذكر أنه كان يعرفها صغيرة ذات ضفيرتين ، ثم احتجبت عنه فلم يرها إلا في منى في موسم الحج ، وكان وجهها يشرق تحت الحجاب ، كالشمس غطتها غمامة، وقد أبدت عيناً واحدة وأخفت الأخرى ، على عادة حجاب بعض النساء في ذلك العصر . يقول :

أتعرف رسماً كاطّراد المذاهب   لعمرة قفراً غيرَ موقفِ راكبِ [4]

تراءت لنا كالشمس تحت غمامة   بدا حاجب منها وضنت بحاجب

(١) أغلّ : خان : القاموس : (غلل) .

(٢) الأغاني : ٢٧٦/٢٢ . والبيت الثاني في طبقات الشعراء : ٣١٠/١ .

(٣) بعاث : يوم من أيام الأوس والخزرج في الجاهلية ، كان قبل الهجرة بخمس سنوات ، وفيه تحاربت القبيلتان بتحريض من اليهود ، فلما انتصر الأوس صاح صائحهم : « يا معشر الأوس أحسنوا ولا تُهلكوا إخوانكم ، فجواركم خير من جوار الثعالب » أي اليهود . فانتهوا عنهم و لم يسلبوهم ، وسلبهم اليهود جشعاً منهم . ينظر طبقات فحول الشعراء : ٢٨٨/١-٢٣١ .

(٤) اطراد المذاهب : جمع مُذْهَب: جلود تجعل فيها خطوط فيرى بعضها في إثر بعض فكأنها متتابعة ، وبقيت رسومها بعد المطر والرياح ترى من بعيد ، كأنما يطرد بعضها في إثر بعض . طبقات فحول الشعراء : ٢٢٨/١ .

ولـم أرهـا إلا ثـلاثـاً عـلى منىً   و عهدي بها عذراءَ ذاتَ ذوائب [1]

وهذه « أم عمرو بنـت وقـدان »[2] تنـدد ببـني قومـها ؛ لأنـهم تخلّوا عـن الثأر لأخيها ، وتقول لهم : إن ضيعتم دم أخيكـم ، وقعـدتم عـن الانتقـام لـه لتقصـيركم في طلب ثأره ، فضعوا السلاح واطرحوه في القفار ، وخذوا المكاحل والمجاسد . واجعلـوا هذه الأدوات الخاصـة بالنسـاء بـدل السـلاح ، والبسـوا نُقَـب النسـاء . وبئـس القـوم قومكم . وذكر النقاب صفةً للمـرأة يشـير إلى انتشـاره في ذلـك المجتمـع ، فكأنـه أمـر ضروري ، وهي تعرف به ، تقول :

إن أنتمُ لـم تـطلُبـوا بـأخيكـم   فذروا السلاح ووحِّشـوا بالأَبْـرَق [3]

وخُذوا المكاحل و المجاسِد و البسوا   نُقَبَ النساء ، فبئس رَهْطُ المُرْهَق [4]

وشبيه بالنقاب البرقع واللثام ، وهذا عنترة يذكر عبلة شابة جميلة ، ثقيلة الوركـين تضع اللثام أو البرقع ، فلا يبدو مـن وجهـها إلا عيناهـا الناعسـتان ، وهـو يثـني عليـها لعفتها ؛ لأنـها لا تُرى إلا بلثام أو برقع ، يقول :

وبين قباب ذاك الحيِّ خَوْدٌ   رَداحٌ لا يـمـاطُ لـهـا لِـثـام [5]

---

(١) المرجع السابق : ١/٢٢٨–٢٣١. وذكر أن أمير المؤمنين عمـر بـن الخطـاب ـ رضي الله عنـه ـ أعجب بهذا الوصف للمرأة . ديوان قيس بن الخطيم : ٧٦ و ٧٩ ـ ٨٠ .

(٢) أم عمرو بنت وقدان : شاعرة جاهلية قتل أخوها ففكرت عشيرتـها بأخذ ديته ، فغضبـت . ينظر لترجمتها وللبيتين :شرح ديوان الحماسة : ٣/١٥٤٦ .

(٣) وحِّشوا : بلد وحش : قفر : القاموس : (وحش) . الأبرق : غلظ فيه حجارة ورمل وطين: القاموس : (برق) .

(٤) المكاحل : جمع مُكْحُلة : وهو ما فيه الكُحُل : اسم آلة جاء بـالضم : القـاموس : (كحـل) . المجاسد: جمع مُجْسَد و مُجَسَّد : الثوب المصبوغ بالجِساد ، وهو الزعفران : فقه اللغة : ٢٥٨ . المُرْهَق : من الرَّهَق : وهو السفه والخفة وركوب الشر : القاموس : (رهق) .

(٥) الخود : الحسـنة الخلـق ، والشابـة والناعمـة : القـاموس: (خـود) . رداح : ثقيلـة الوركـين : القاموس : (ردح).

لها من تحت بُرقعها عيون صِحَاحٌ حَشْوُ جَفْنَيْهَا سَقام [(١)]

أما « قيس بن منقذ بن عمرو الحُدادية »[(٢)] ، فيتحدث عن « أم مالك الخزاعية » ويصفها بأنها امرأة مصون ، تشد لثامها على فمها قبل أن تظعن ، فلا يبدو من وجهها إلا عيناها اللتان كانتا تذرفان الدمع فيسيل الكحل منهما ، يقول في ذلك :

فشدَّت على فِيها اللثام وأعرضت وأمعنَ بالكحل السحيق المدامعُ [(٣)]

وكذلك وصف « المثقب العبدي »[(٤)] نساء قبيلته الراحلات بهوادج قد غطيت بكِلَّة وثياب يمنية ، وكانت النساء تلبسن براقع لا يبدو منها إلا عيونهن ، ولا يبين من أجسامهن إلا ما لا ريبة في إظهاره ، يقول هذا الشاعر الذي لقب بالمثقب لحديثه عن ثقوب البراقع :

ظهرْنَ بِكِلَّةٍ و سدَلْنَ رقماً وثقَّبْنَ الوصاوص للعيونِ

أرَيْنَ محاسناً وكَنَنَّ أخرى من الديباج والبَشَر المصون [(٥)]

وأما الخمار وهو أيضاً من أنماط الحجاب في العصر الجاهلي ، فقد ورد في شعر

---

(١) ديوان عنترة : ٢١٢ . وله مثلها في الديوان نفسه : ١٣٩ .

(٢) قيس بن منقذ بن عمرو الحُدادية : نسبة إلى أمه من بني حداد : شاعر جاهلي من قيس عيلان ، كان فاتكاً وخليعاً . ينظر لترجمته في الأغاني : ١٤/٤٤ .

(٣) المرجع السابق : ١٤/١٥٨ .

(٤) المثقب العبدي : شاعر جاهلي عاصر عمرو بن هند ملك الحيرة ، وكان من فحول شعراء البحرين ، لقب بالمثقب لقوله المذكور آنفاً: « وثقبن الوصاوص » . ينظر لترجمته في : ديوان شعر المثقب العبدي : ١٥٦ ـ ١٥٨، بتحقيق : حسن كامل الصيرفي ، وفي شرح اختيارات المفضل : ٢/٧٠٤ ـ ٧٠٥ . وطبقات الشعراء : ١/٣٩٥-٣٩٦ .

(٥) البيتان والشرح من شرح اختيارات المفضل : ٣/١٢٥٠ ـ ١٢٥١ . ظهرن بكلة : أظهرن كلة على هوادجهن . سدلن : أرسلن . الرقم : ثياب يمنية تُلْبَسُه الهوادج . والوصاوص : ثقب البراقع إذا كانت صغاراً ، ويقصد بذلك أنهن حديثات الأسنان ، فبراقعهن صغار ، قال الأصمعي : ثقبْن الوصاوص : أراد بذلك عفتهن والمبالغة في صيانتهن . ويعني بالبيت الثاني : أن النساء أظهرن من ثيابهن الديباج والملابس الفاخرة ، ومن المعاري اليد وبعض الوجه وما لا ريبة في إظهاره ، وسترن ما عدا ذلك .

« عوف بن عطية بن الخَرِع التّيمي »[1] ، وهو يصف غارة خرجت النساء على إثرها حواسر ، وتركن الخمار، فبدت وجوههن ، وكان منهن من استرخى منطقها إلى مكان المئزر ، وذلك من هول الموقف ، يقول مصوراً حال النساء في هذه الغارة :

ولنِعْم فتيانُ الصباح لقِيتمُ ... وإذا النساءُ حواسرٌ كالعُنْقَرِ [2]

من كلّ واضعةِ الخمار وأختها ... تسعى ومِنْطَقُها مكانُ المِئْزر [3]

وهذا « صخر بن عمرو » أخو الخنساء يذكر الخمار أيضاً مشيراً به إلى عفة المرأة، فقد روى ابن عبد ربه أن أم المؤمنين عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت للخنساء : « أتتخذين الصِّدار وقد نهى عنه رسول الله ﷺ ؟» فقالت : « يا أم المؤمنين : إن زوجي كان متلافاً فأمْلَقَنا ، فقال : لو أتيت معاوية فاستعنتيه[4] ، فلقيني صخر، فأخبرته بالأمر ، فشاطرني ماله ، فأتلفه زوجي ، فعل ذلك ثلاث مرات ، فقالت امرأته : لو أعطيتها شرارها ـ تعني الإبل ـ فسمعته يقول :

والله لا أمْنَحُها شرارَها ... ولو هلكْتُ عطّلَتْ خمارها

وهْي حصانٌ قد كفتْني عارَها ... و اتخذَتْ من شعَر صِدارَها [5]

فلما هلك اتخذت هذا الصدار ، ونذرت ألا أضعه حتى أموت » ، ثم قالت :

---

(١) عوف بن عطية التيمي : أحد سادات تيم الرباب ، شاعر مفلق ذكره ابن سلام الجمحي في الطبقة الثامنة من فحول الجاهلية . ينظر لترجمته في شرح اختيارات المفضل : ١٣٧٣/٣ .

(٢) العُنقر : أصل القصب ، شبه وجوه النساء به لنعومته ولونه . المرجع السابق : ١٣٧٣ ـ ١٣٧٤.

(٣) المرجع السابق .

(٤) هكذا وردت الكلمة بالياء ، وهي لهجة عربية .

(٥) ورد الشطر الثاني من البيت الأول أيضاً: «ولو هلكت قدّدت خمارها» وفيه تشديد أيضاً على قضية تخمير الوجه ، وإلا فالعار كما يبين من النص ، العقد الفريد : ٢٢٣/٣ والنص منه . و ذكر أبو العباس ثعلب في شرح ديوان الخنساء القصة دون تتمة الشعر ، وأحال على صفحة ذكر المحقق أنها سقطت ، وعلى هذا فلا شاهد فيه للقضية ، وينظر للقصة والإحالة إلى الشعر في ص ٣٦٧ ـ ٣٦٩ ، ووردت القصة أيضاً في طبقات الشعراء : ٣٤٧ ، وكان الشعر فيها :

والله لا أمنحُها شرارَها ... ولو هلكتُ مزقتْ خمارها

وجعلتْ من شعر صدارها

«كنت أبكي لصخر من القتل ، فأنا أبكي له اليوم من النار » .

والنصيف أيضاً مما تستر بـه المرأة الجاهلية رأسها ، وكانت « المتجردة » زوج « النعمان بن المنذر » قد سقط نصيفها ذات مرة ، فخبّأت وجهها بيدها . فذكر النابغة الذبياني موقفها ذاك في قوله :

سقط النصيفُ و لم تُرِدْ إسقاطه فتناولتْه واتَّقتْنا باليدِ [١]

ومن الجدير بالذكر في هذا المجال أن هذه المرأة سميت بالمتجردة لهذا البيت ، وبقي العار لاصقاً بها ، مع أن النابغة نفسه كان قد وصفها في القصيدة نفسها بأنها درة في صدفها ، يصعب الحصول عليها إلا بعد جهد جهيد ، فإن تم للمرء ذلك هلّل وسجد شكراً لله الذي نوّله مأمله ، قال في ذلك :

أو دُرّةٌ صَدَفيَّة غواصها بـهِجٌ متى يَرَها يهِلّ ويسجد [٢]

وقد روى الهيثم بن عدي حديثاً جرى بينه وبين صالح بن حسان ذكره الأصفهاني بقوله : « قال صالح : كان ـ والله ـ النابغة مخنثاً ، قلت : وما علمك به ؟ أرأيته قط ؟ قال : لا والله ، قال : فأخبرت عنه ؟ قال : لا ، قلت : فما علمك به ؟، قال : أما سمعت قوله :

سقط النصيف و لم ترد إسقاطه فتناولته واتَّقتنا باليد

لا والله ما أحسن هذه الإشارة ولا هذا القول إلا مخنث »[٣] .

وكان هذا البيت سبباً أو أحد أسباب غضب النعمان عليه وهروبه إلى

---

(١) ديوان النابغة الذبياني : ٩٣ ، بتحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم . وطبقات فحول الشعراء : ٦٨/١. و الأغاني : ١١/١١-١٢ .

(٢) البيت من القصيدة نفسها ، وقد أضاف الدرة إلى الصدفية ليكون ذلك أبلغ في تحقيق معنى الصون والستر ، ينظر لذلك : ديوان النابغة : ١٥ .

(٣) المرجع السابق .

الغساسنة [1]، لما في العربي من مروءة و غيرة على محارمه .

وكان النساء الجاهليات يرتدين أكسية ساترة متعددة الأشكال ، منها المِلاءات والرَّيْط ، والأُزر ، والجلابيب ، يحجبن بها مفاتنهن أن يراها أحد ، فالشاعر امرؤ القيس يشبه البقر الوحشي بفتيات يرتدين ملاءات سابغات ، وهن يطُفْنَ حول الصنم ، وذلك في قوله :

فَعَنَّ لنا سِربٌ كأن نعاجه　　　عذارى دوار في ملاء مُذَيَّلِ [2]

وجعل « أوس بن حجر »[3] النساء الظاعنات إناثاً صغيرات ، وفي عمر متقارب ، وكن قد عرفن بنسبهن الحميد ، وعفتهن ، وبعدهن عن الريبة ، وهن أشبه بالظباء في حركاتهن ، وكان لباسهن الريط والأكسية الحريرية الأخرى ، يخفين بها محاسنهن . قال في ذلك :

غُرٌّ غرائر أبكارٌ نشأن معاً　　　حُسْنُ الخلائق عما يُتّقى نُوْرُ [4]

لبسْنَ رَيْطاً وديباجاً وأكسية　　　شتى بها اللّونُ إلا أنها فُوْرُ [5]

---

(١) الأغاني : ١٢/١١ . وينظر للنصيف حجاباً للمرأة أيضاً في قول « معقر بن حمار » الشاعر الجاهلي الفارسي في : منتهى الطلب : ٢٤٤/٣ . وترجمة الشاعر في ص ٢٤٤ من الكتاب نفسه .

(٢) شرح المعلقات العشر : ٧٩ . والنعاج : البقر من الوحش : القاموس : (نعج) . والدوار : صنم كانت العرب تنصبه ، يجعلون موضعاً حوله يدورون به ، تاج العروس : (دور) . والمعنى : أن هؤلاء العذراوات كن يطفن حول الصنم وهن يرتدين الملاءات الضافية الطويلة .

(٣) أوس بن حَجَر : شاعر جاهلي كان يجود شعره فأرسى بذلك قواعد المدرسة الأوسية التي تقول بتنقيح الشعر حولاً كاملاً ، وقد تتلمذ على يديه الشاعر زهير بن أبي سُلمى . ينظر لترجمته في : طبقات فحول الشعراء : ٢٠٢ . والأغاني : ٧٠/١١ .

(٤) الغُرّ : جمع غراء ، وهي البيضاء : القاموس : (غرر) ، وغرائر : جمع غريرة ، وهي الشابة الحديثة السن التي لم تجرّب الأمور . نور : جمع نوار : وهي الفتاة التي تفرّ من الريبة ، والأصل بضمتين ثم كرهوا الضمة على الواو فسكنت : القاموس : (نور) .

(٥) فُوْر: الظباء ، والمفرد فائر. وينظر للبيتين في : ديوان أوس بن حجر:٤٠، بتحقيق : محمد يوسف نجم .

أما « الرَّمق بن سالم الخزرجي »[1] فقد ذكر من أنواع الأكسية الإزار . وذلك في مستهل قصيدة يمدح بها الملك الغساني أبا جُبَيْلة . الذي قضى على شوكة اليهود في يثرب ، وقد تحدث في مطلع القصيدة عن الظعائن ، فإذا بهن كالغزلان في أرض رملية ، يأتزرن ويرتدين الريط الحريرية والدروع المضاعفة النسج . والخلاخل والأساور ، يقول :

أمثال غزلان الصرا ... ثم يأتزرْن ويرتدينا[2]

الرَّيْطَ والديباجَ والزْ ... زَرَدَ المضاعفَ و البُرِيْنا[3]

وهناك الجلباب ساتراً للمرأة الحرة أيضاً ، قال « سلامة بن جندل »[4] يذكره إبان حديثه عن صاحبته التي تمتاز بنقائها ، فلا تشوبها أدنى ريبة ، وبرائحتها الزكية . وأسنانها الجميلة المفلّجة :

تُجْرِيْ السِّواك على غُرٍّ مفلّجة ... لم يَغْذها دَنَسٌ تحت الجلابيب[5]

مما سبق يتبين لنا أن الحجاب كان في العصر الجاهلي على أشكال شتى ، فمنه ما هو خاص بالرأس ، كالنقاب واللثام والخمار والنصيف والبرقع والقناع ، ومنه ما يستر الجسد كله كالملاءة والريطة والجلباب والإزار، وهذا ما يؤكد وجوده في ذلك العصر

---

(١) الرمق بن سالم الخزرجي : شاعر من شعراء الخزرج ، مدح الغساسنة الذين أنقذوا قومه من بأس اليهود في يثرب « المدينة المنورة » . ينظر لترجمته في الأغاني : ١١٢/٢٢ . وستمر قصة الغساسنة واليهود في هذا البحث ص . . .

(٢) الصرائم : جمع صريم ، وهو القطعة من كثبان الرمل : القاموس : (صرم) .

(٣) الأغاني : ١١٢/٢٢-١١٣ . والزرد المضاعف : الدروع المضاعفة : القاموس : (زرد) ، وقد فصلت الزاي المشددة لأن البيت مدور . والبُرِيْن : جمع برة : الحلقة من سوار أو خلخال أو حلق ونحو ذلك .

(٤) سلامة بن جندل التميمي ، شاعر وفارس جاهلي ، له ديوان شعر ، عني به اللغويون لجودة شعره ، ينظر لترجمته في: ديوان سلامة بن جندل : ٨٧، بتحقيق: محمد بن الحسن الأحول. وطبقات الشعراء : ٢٧٢/١.

(٥) الأغر : الأبيض من كل شيء : القاموس : (غرر) . الفلج : تباعد ما بين الأسنان : القاموس : (فلج). وكان ذلك من الصفات الجميلة . والبيت في الديوان : ٢٢٦ .

تأكيداً تاماً ، و لم يتوقف أمر اتضاحه على الشعر فحسب ، وإنما بدا ذلك أيضاً في النثر الجاهلي على نحو ما سنرى .

قضية الحجاب في النثر الجاهلي :

تروي لنا كتب الأدب التي تتحدث عن العصر الجاهلي حكايات وأخباراً شتى ، ذكر في تضاعيفها الحجاب ، وكان معظمها يتحدث ـ كما هو الحال في الشعر ـ عن الحروب :

١ ـ ففي كتاب الأغاني قصة « السُّلَيْك بن السُّلَكَة »[١] الذي ترصد له بنو عوارة يريدون قتله ، فخاتلهم وقصد لأدنى بيوتهم ، حتى ولج على امرأة تدعى فُكَيْهة فاستجار بها فدافعت عنه بسيفها حتى نجا وهرب ، وحين اشتد عليها الطعان وأدركت أنه نجا كشفت خمارها ، فولوا على أدبارهم ، فقال السليك يثني عليها :

لعَمْرُ أبيكِ والأنباء تُنمي ... لَنعم الجارُ أختُ بني عُوارا
من الخَفِرات لم تفضح أباها ... ولم ترفعْ لإخوتها شَنارا
وما عجزَتْ فُكَيْهة يوم قامت ... بنصل السيف واستلبوا الخِمارا [٢]

وقول الراوي : «كشفت خمارها فولوا أدبارهم » ، يشير إلى أن الرجل الجاهلي كان يرى من العار القبيح أن ينظر إلى وجه المرأة ، وفي هذا إشارة إلى المبالغة في ستر الوجه .

٢ ـ وروى ابن رشيق في عمدته أن سبب « يوم الفِجار الثاني »[٣] في الجاهلية هو حجاب المرأة ، ذلك لأن « فتياناً من غُزَيَّة قريش وكنانة رأوا امرأة وضيئة من بني

---

(١) السُّلَيْك بن السُّلَكَة : شاعر جاهلي من الصعاليك من أصحاب تأبط شراً والشنفرى ، كان من العدائين، وكان من أعلم الناس بمسالك الأرض ، له وقائع كثيرة ، ومات قتلاً . ينظر لترجمته في : طبقات الشعراء : ٣٥٦/١ ، والأغاني : ٣٧٥/٢٠ ، والأعلام : ١١٥/٣ .

(٢) القصة والأبيات في الأغاني : ٣٨٣/٢٠ ـ ٣٨٤. والشَّنار : العار وأقبح العيب : القاموس : (شنر).

(٣) هو حرب وقعت بين قريش وهوازن . ينظر له في العقد الفريد : ١٠٢/٦ .

عامر بن صعصعة في سوق عكاظ ، فسألوها أن تسفر لهم فأبت ، فحلّ أحدهم ذيلها إلى ظهر درعها بشوكة ، فلما قامت انكشفت ، فقالوا : منعتِنا رؤية وجهك ، وأريتنا دبرك ، فصاحت : يا لَعامر... فتهايجوا ، وجرت بين الفريقين دماء حملها الحارث بن أمية »[1] .

٣ ـ بل إن التشديد في حجاب المرأة كان أمراً معهوداً ، غيرة من الأزواج ، ولا سيما الشبان منهم فالزباء بنت علقمة بن خصفة الطائي استشارها أهلها في زواجها . فأبدت رغبتها قائلة : « أحب الفتى الوضاح لا الكهل الجحجاح »[2] . فقالت أمها : إن الفتى شديد الحجاب كثير العتاب[3] .

٤ ـ وكان إسفار الوجه عاراً يلحق المرأة وذويها وقد يؤدي إلى قتلها ، فقد روى ابن قيّم الجوزية أن الفطيون رئيس اليهود في يثرب كان رجلاً فظاً غليظاً فاجراً ، وقد تملك على أهلها وسامهم خسفاً ، وشرط عليهم ألا تدخل امرأة على زوجها حتى يبدأ بها ، فخرجت أخت مالك بن العجلان السالمي الخزرجي سافرة يوم زفافها ، فغضب مالك ووثب إليها ليقتلها ، وقال لها : فضحتني ونكست رأسي وأغضضت بصري ، فقالت له : الذي تريد بي أنت شر من هذا وأقبح وأفضح ، إن كنت تهديني إلى غير بعلي فيصيبني ، فهذا شر من خروجي سافرة حاسرة ، فقال مالك : صدقت وأبيك ، فدبّر أمراً ودخل على الفطيون متنكراً مع النساء ، فلما خفّ مَنْ عنده عدا عليه فقتله ، وانصرف إلى دار قومه ، ولجأ إلى ملك الغساسنة الحارث بن عمرو ، وكان يكنى أبا جبيلة ، فأنجده هذا بجيش كبير قاده حدّاً لتصرفات اليهود ، ولم تقم لهم قائمة بعد ، إذ جاء أبو جبيلة إلى يثرب متظاهراً أنه يريد اليمن ، وأجمع أن يمكر باليهود ، ثم أرسل إليهم أنه يحب أن يأتوه لإكرامهم ، فلم يبق كبير منهم إلا جاءه مع خاصته وحشمه ، رجاء أن يعودوا منه بعطاء ، فلما اجتمعوا ببابه أمر أن يدخلوا عليه رجلاً رجلاً ، وكان أمر رجالاً من جنده أن يقتلوا

---

(١) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي الحسن بن رشيق القيرواني : ٢١٨ ـ ٢١٩.

(٢) الجَحْجاح والجَحْجَح : السيد : القاموس : (جحّ) .

(٣) أعلام النساء : ٢/٤ ـ ٥ .

كل من دخل عليه منهم ، حتى أتى على آخرهم ، وفي ذلك قالت سارة القرظية :

كهولٌ من قُريظَةَ أتلَفَتْهم   سيوفُ الخزرجية والرمـاحُ [(١)]

ثانياً : تعليل وجود هذه الظاهرة :

إن كثرة ورود الحجاب عند أكثر من ثلاثين شـاعراً وقاصـاً ، صراحـة أو بشكـل غير مباشر، ليشير إلى انتشاره في ذلك العهد في مساحات واسعة ، وأزمنة شتى . وقـد بدا من خلال هذا البحـث أن الحجـاب الجـاهلي كـان يشبـه إلى حـدّ كبـير الحجـاب الإسلامي ، تغطية للرأس وستراً للبدن ، بل إسباغ ملاءات أيضـاً ، وأنـه كـان يُحْـرص عليه ، وأن التهاون فيه مدعاة للغضب ، وقد يؤدي حسره إلى الحرب .

والسؤال الآن : ما الأسـباب الـتي حـدت بـالرجل الجـاهلي أن يحجـب زوجتـه ، وبالمرأة أن تسدل الستر عليها ؟ .

وأجيب على ذلك بالأسباب التالية :

١ ـ لعل أول سبب وأهمّه ـ برأيي ـ هو أن الحجاب كان البقية الباقيـة مـن الديـن الحنيفي ، الذي عرف في الجزيرة العربية ، وهو دين سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، بل إن الله سبحانه وتعالى قال في محكم كتابه : ﴿ وإنْ مـن أمَّـةٍ إلا خـلا فيـها نذير ﴾ [(٢)] وكل دين سماوي يدعو إلى الحجاب وقد بقيت بعض تعاليم هـذا الديـن في الجزيرة العربية كمعرفة الله خالقاً ، قال تعالى : ﴿ ولئـن سـألْتَهم مـن خلقَـهم ليقولُـنَّ الله ﴾ [(٣)] ، وحجـهم إلى بيـت الله الحـرام ، وإن شوّهـت بعـض معالمـه ، والديـة وإن ابتدعت عادة الثأر ... وكذلك الحجاب غدا تقليداً متبعـاً لا شرعاً ودينـاً ، وصـارت كيفيته تنفذ على أشكال شتى ، ويتبع فيها ما عرف في مجتمعهم ، وقـد حكـى القـرآن الكريم تقليدهم هذا لآبائهم وأجدادهم دون أن يرتبط هذا التقليـد بديـن أو عبـادة في قوله تعالى : ﴿ بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمّة وإنا على آثارهم مهتدون ﴾ [(٤)] .

---

(١) القصة في أخبار النساء لابن قيم الجوزية : ٣٨-٣٩ .

(٢) سورة فاطر : ٢٤ .

(٣) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٤) سورة الزخرف : ٢٢ .

والدليل على أنه صار عرفاً وتقليداً ، لا التزاماً لفريضة دينية :

أ ـ أن المرأة كانت تحسر عن رأسها عند ندب الموتى أو القتلى . وكان الرجل آنئذ لا يمنعها من ذلك وإن كان يستنكره ، وقد ظلت الخنساء محافظة على هذه العادة بعد إسلامها جهلاً منها ، إذ خرجت تطوف بالبيت محلوقة الرأس تبكي وتلطم خدها . وقد علقت نعل صخر أخيها في خمارها . فرآها عمر بن الخطاب أمير المؤمنين ـ رضي الله عنه ـ فوعظها ، فقالت : إني رزئت فارساً لم يُرْزأ أحد مثله . فقال : إنَّ في الناس مَنْ هو أعظم مرزأة منك ، وإن الإسلام قد غطى ما كان قبله . وإنه لا يحل لك لطم خدك و لا كشف رأسك ، فكفّت عن ذلك وأنشدت :

فلا والله لا تسلُوكَ نفسي لفاحشةٍ أتيْتُ ولا عُقوقِ
ولكني رأيتُ الصبرَ خيراً من النعلين والرأسِ الحليقِ[(١)]

ب ـ فرض الحمس ، وهم أهل الحرم المكي ، على أهل الحلّ أن يطوفوا بثياب من عندهم ، فإن لم يجدوا طافوا عراة ، فإن أبوا طافوا بثيابهم ثم رموها لا ينتفع بها أحد . وكان الرجل يطوف عارياً ، أما المرأة فكانت تضع ثيابها كلها إلا درعاً مشقوقاً من قدام أو خلف ثم تطوف به[(٢)] !! .

فلو كان الحجاب فريضة دينية ، أو مرتبطاً بوازع ديني لما نُزع عند القيام بعبادة أخرى ، ولكنه غدا ـ بزعمهم ـ تقليداً ، أما الطواف فعبادة ، ولهذا فضلوها على الحجاب والستر .

جـ ـ ومما يؤيد تقليدية الحجاب أن مالك بن العجلان السالمي . قال لأخته عندما خرجت سافرة حاسرة : « فضحتني ونكّست رأسي وأغضضت بصري » ، على نحو ما مرّ[(٣)] ، و لم يقل لها : خالفت ربك وأغضبت إلهك الذي أمرك بالستر ، وهذا يعني أن القضية خلت من مفهوم الإيمان واتباع شرع الله ، إلى عرف اجتماعي يلحق العار

---

(١) ديوان الخنساء (نشر دار بيروت) : ٥ ، الأغاني : ٥٥/١٥ . الخزانة : ٤٣١/١ .

(٢) السيرة النبوية لابن هشام الأنصاري : ٢١٤ ـ ٢١٥ .

(٣) ينظر ص ٣٧١ من هذا البحث .

من يخالفه .

د ـ بل إني أرى أن الرسول ﷺ لم يكن يأمر نساءه بالحجاب ، على الرغم من إلحاح سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، لأن الأمر لم يكن عبادة بل تقليداً ، إلى أن أمر به الشارع الحكيم ، فقد ذكر البخاري رحمه الله ، عن عائشة رضي الله عنها : « أن أزواج النبي ﷺ كُنّ يخرجن بالليل إذا تبرزن إلى المناصع ـ وهو صعيد أفيح ـ فكان عمر يقول للنبي ﷺ : احجب نساءك ، فلم يكن رسول الله ﷺ يفعل ، فخرجت سودة بنت زمعة زوج النبي ﷺ ليلة من الليالي عشاءً وكانت امرأة طويلة ، فناداها عمر : ألا قد عرفناك يا سودة ؛ حرصاً على أن ينزل الحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب [1] ، وفيها أمر الله سبحانه به في قوله : ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يُدْنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذيْن وكان الله غفوراً رحيماً ﴾ [2] وطلب من المرأة ـ كما يقول ابن عباس رضي الله عنهما ـ في هذه الآية : « أن تلوي الحجاب عليها فلا يظهر منها إلا عين واحدة تبصر بها ، وقال ابن عباس ـ أيضاً ـ وقتادة : أن تلويه فوق الجبين وتشده ، ثم تعطفه على الأنف ، وإن ظهرت عيناها ، لكنه يستر الصدر ومعظم الوجه ؛ وقال الحسن : تغطي نصف وجهها » [3] ؛ كما طلب من النساء أن يضربن بخمرهن على جيوبهن في قوله تعالى: ﴿ وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو...﴾ الآية[4] ، وقالت عائشة ـ رضي الله عنها ـ : « يرحم الله نساء المهاجرات ، لما أنزل ﴿وليضربن بخمرهن على جيوبهن ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها » ، وفي رواية : « فما منهن امرأة إلا قامت إلى مرطها المرحل فاعتجرت به ؛ تصديقاً وإيماناً بما أنزل الله من كتابه ، فأصبحن وراء رسول الله ﷺ معتجرات كأن على رءوسهن

---

(١) صحيح البخاري : باب الوضوء : ١٣/١ .

(٢) سورة الأحزاب : ٥٩ .

(٣) الجامع لأحكام القرآن لمحمد بن أحمد القرطبي : ٢٤٣/٧ .

(٤) سورة النور :٣١. وجيب القميص ونحوه : طوقه. القاموس : (جيب) ، وهو مكان فتحة الرأس.

الغربان »[1] .

إذاً كان الحجاب حتى نزول هذه الآية عرفاً اجتماعياً غير ملتزم به . وإن كانت النساء يرتدين المروط والأزر والأقنعة ، فلما جاء الإسلام صار فريضة لازمة متبعة . التزمت به النساء تصديقاً وإيماناً ـ كما قالت أم المؤمنين ـ رضي الله عنها ـ .

٢ ـ وربما كان الحجاب ناتجاً عن تأثر بعض أبناء المجتمع العربي بالنصارى واليهود ، الذين كانوا يعيشون بين ظهراني العرب في أرض الشام والحجاز واليمن ونجران ، وكان هؤلاء يضعون الحجاب كأصحاب أي دين سماوي ، ولعل انتشاره بينهم ساعد العرب على التمسك به ، وعدم التخلي عنه إلا في أيام الندب أو الحرب ـ كما مرّ ـ وهذان ـ برأيهم ـ أمران يُذهلان الإنسان عن نفسه .

٣ ـ وأمر ثالث أرى أن له أثره في حجاب المرأة في ذلك العهد ، ذلك هو غيرة الرجل على نسائه ، ولهذا كان يُعجب بالمرأة التي تغض طرفها[2] ، ويصفها بأنها درّة يتعب الغواص في سبيل الحصول عليها[3] ، وكان أسرها يقض مضجعه ، ومن أراد أن ينتقم من عدوه أشعلها حرباً شعواء تُخرج النساء من خدورهن حواسر[4] ، وكان الشبان يبالغون في حجب المرأة غيرة عليها[5] ، وقد غضب النعمان بن المنذر ـ مع وثنيته ـ على شاعره الخاص (النابغة الذبياني) ، عندما وصف هذا زوجته المتجردة إثر سقوط نصيفها ، وسجل التاريخ الحادثة واللقب ، ونسجت حوله قصص متعددة تشير إلى غيرة الرجل على المرأة ، وشعوره بالإهانة عند التعرض لوصف زوجه[6] .

بل إن المهلهل بن ربيعة صرّح بهذه الغيرة ـ كما مرّ ـ في قوله :

كنا نغار على العواتق أن تُرى بالأمس خارجة عن الأوطان

---

(١) تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي : ٣/٢٩٥ .

(٢) مرّ ذلك في هذا البحث ص ٣٦٢ .

(٣) مرّ ذلك في هذا البحث ، ص ٣٥١ ـ ٣٥٢ .

(٤) مرّ ذلك في هذا البحث ، ص ٣٥٧ .

(٥) مرّ ذلك في هذا البحث ، ص ٣٧١ .

(٦) مرّ ذلك في هذا البحث ، ص ٣٦٧ .

فخرجن حين ثوى كُليبٌ حُسّراً مستنقعات بعده بهوان [1]

ثم : ألم يمرَّ ما طلبه عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ من رسول الله ﷺ من حجب نسائه قبل أن يفرض الحجاب غيرة عليهن ، وهن أمهات للمؤمنين ؟ [2] .

٤ ـ الفطرة التي فطر الله سبحانه عليها المرأة ، فقد جُبلت على الحياء ، وأدركت أن نظرة الرجل إليها تخدش حياءها وكرامتها فأسدلت سترها ، بدليل :

أ ـ ما فعلته عبلة أمام عنترة من إغداف قناعها ، وهو وإن عاتبها على ذلك لشهوة في نفسه ناتجة عن رغبته في الاقتران بها ، مع نفورها منه نفوراً عبرت عنه بإسدال حجابها ـ كما مرّ [3] ـ إلا أنه أثنى عليها في مجال آخر حين وصفها بأنها « لا يماط لها لثام » [4] .

ب ـ وأُشعلت حرب « الفجار الثاني » ؛ لأن فتياناً من غَـزِيَّةَ أرادوا من المرأة أن تسفر عن وجهها الوضيء فأبت [5] .

جـ ـ وبقيت فكرة حياء المرأة داعياً للحجاب ، فلما جاء الإسلام قوّى وعمّق هذه الفكرة ؛ روى حجاج بن محمد عن فرج بن فضالة : أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ يقال لها أم خلاد ، وهي منتقبة ، تسأل عن ابنها وهو قتيل ، فقال لها بعض أصحاب النبي ﷺ : جئت تسألين عن ابنك وأنت منتقبة !. فقالت : « إن أُرزأ ابني فلن أُرزأ حيائي » ، فقال لها الرسول ﷺ : « ابنك له أجر شهيدين » ، قالت : « ولِمَ ذاك يا رسول الله ؟» قال : « لأنه قتله أهل الكتاب »[7] .

---

(١) مرّ ذلك في هذا البحث ، ص ٣٥٨ .

(٢) ينظر لذلك ص ٣٧٤ من هذا البحث .

(٣) ينظر لذلك ص ٣٦٢ من هذا البحث .

(٤) ينظر لذلك ص ٣٦٤ من هذا البحث .

(٥) ينظر لذلك ص ٣٧٠ ـ ٣٧١ من هذا البحث .

(٧) سنن أبي داود : باب الجهاد / ٨ ، رقم الحديث : ٢٤٨٨ . وفي النص إشارة إلى أن الحادثة كانت في حرب الروم ، وكان ذلك في أواخر العهد النبوي ، وبعد نزول فريضة الحجاب .

وفي هذا دلالة على ارتباط الحجاب بفكرة الحياء . فكأنه رمزٌ له . وفيه تلميح أيضاً إلى فكرة حسره عند المصيبة في العصر الإسلامي قبل الحجاب ، وإن كان الحسر لا يصل إلى الشعر في ذلك العهد .

وختاماً :

فإن الحجاب في العصر الجاهلي كان أمراً مشهوداً ، وقد عرف من أنواعه - كما مرّ - ما يستر الرأس والوجه ، بل الجسم أيضاً ، على نحو يشابه الحجاب الإسلامي ، ولكنه لم يعرف شريعة ترتبط بدين ، بل تقليد أو عرف اجتماعي ، وتشير الأدلة إلى انتشاره على نطاق واسع في أماكن متعددة ، وأزمنة متباعدة .

المصادر و المراجع

١ـ أخبار النساء لابن قيم الجوزية ، ت: د. نزار رضا ـ منشورات دار الحياة ـ بيروت لبنان .

٢ـ الأصمعيات لأبي سعيد عبد الملك بن قريب ، تحقيق وشرح : أحمد محمد شاكر وعبدالسلام هارون ـ دار المعارف بمصر ـ ط الثانية ـ ١٩٦٤م .

٣ـ الأعلام لخير الدين الزركلي ـ ط السابعة ـ ١٩٧٦م ـ دار العلم للملايين ـ بيروت ـ لبنان.

٤ـ أعلام النساء لعمر رضا كحالة ـ ط الخامسة ـ ١٩٨٤م ـ بيروت ـ لبنان .

٥ـ الأغاني لأبي الفرج علي بن الحسين الأصبهاني ، تحقيق : عبد الكريم إبراهيم الغرباوي ، بإشراف : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط الأولى ـ ١٩٩٤م ـ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان .

٦ـ تاج العروس من جواهر القاموس لمحمد مرتضى الزبيدي ـ ط الأولى ـ ١٣٠٦هـ ـ المطبعة الخيرية ـ القاهرة ـ مصر .

٧ـ تفسير القرآن العظيم لأبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي ـ دارالمعرفة ـ بيروت ـ لبنان .

٨ـ الجامع لأحكام القرآن لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي الأنصاري ـ ط الثانية ـ ١٩٥٢م ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ مصر .

٩ـ جمهرة الأمثال لأبي هلال الحسين بن عبد ربه العسكري، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم وعبد المجيد قطامش ـ ط الثانية ـ ١٤٠٨هـ ـ دار الجبل ـ بيروت ـ لبنان .

١٠ـ خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب لعبد القادر بن عمر البغدادي ، تحقيق : عبدالسلام محمد هارون ـ ط الثانية ـ ١٩٧٩م ـ مكتبة الخانجي ـ القاهرة ـ مصر .

١١ـ ديوان الأعشى الكبير ميمون بن قيس ، شرح وتعليق : د. محمد محمد حسين ـ المكتب الشرقي للنشر والتوزيع ـ ١٩٦٨م ـ بيروت ـ لبنان .

١٢ـ ديوان امرئ القيس ، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ـ ط الرابعة ـ دار المعارف بمصر.

١٣ـ ديوان أوس بن حجر ، تحقيق : محمد يوسف نجم ـ ط الثالثة ـ ١٩٧٩م ـ دار صادر ـ بيروت.

١٤ـ ديوان الخنساء للإمام أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب الشيباني ، تحقيق : د. أنور أبو سويلم ـ ط ـ الأولى ـ ١٩٨٨م ـ دار عمار ـ عمان ـ الأردن .

١٥- ديوان الخنساء دار بيروت للطباعة والنشر - ١٩٨٦ .

١٦- ديوان سلامة بن جندل ، جمع : محمد بن الحسن الأحول ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة - ط الثانية - ١٩٨٧م - دار الكتب العلمية - بيروت .

١٧- ديوان عروة بن الورد - ضمن ديواني عروة بن الورد والسموءل ، ومعه ديوان حاتم الطائي - المطبعة الخيرية ١٣٠٦هـ - القاهرة - مصر .

١٨- ديوان عنترة لمحمد سعيد مولوي ، ط الثانية - ١٩٨٣م - المكتب الإسلامي - دمشق - بيروت.

١٩- ديوان قيس بن الخطيم ، ناصر الدين الأسد - ط الثالة - ١٩٩١م - دار صادر - بيروت.

٢٠- ديوان المثقب العبدي لحسن كامل الصيرفي - ط ١٩٧١م - ط معهد المخطوطات العربية في جامعة الدول العربية ١٩٦٩م - القاهرة .

٢١- ديوان النابغة الذبياني ، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم - ط الثانية - ١٩٨٥م - دار المعارف بمصر.

٢٢- سنن أبي داود لأبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني الأزدي ، إعداد وتعليق : عزت عبيد الدعاس وعادل السيد - ط الأولى - ١٩٧١م - دار الحديث للطباعة والنشر - سوريا - ولبنان .

٢٣- السيرة النبوية لابن هشام الأنصاري ، تحقيق : مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي - ط الثانية - دار القلم - بيروت - لبنان .

٢٤- شرح اختيارات المفضل للخطيب التبريزي ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة - ط الثانية - ١٩٨٧م - دار الكتب العلمية .

٢٥- شرح ديوان الحماسة لأبي علي أحمد بن محمد المرزوقي - نشره أحمد أمين وعبد السلام هارون - ط الثانية - ١٩٨٦م - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر .

٢٦- شرح ديوان زهير بن أبي سلمى للإمام أبي العباس أحمد بن يحيى ثعلب الشيباني - نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب الوطنية ١٩٤٤م - نشر الدار القومية للطباعة والنشر ١٩٦٤م .

٢٧- شرح المعلقات السبع للقاضي أبي عبد الله الحسين بن أحمد الزوزني، تحقيق : د. علي البديوي - ط الأولى - ١٩٨٩م - دار ابن كثير للطباعة و النشر .

٢٨- شرح المعلقات العشر للمفضل الخطيب التبريزي ، تحقيق : د. فخر الدين قباوة - ط الرابعة - ١٩٨٠م - منشورات دار الآفاق الجديدة - بيروت - لبنان .

٢٩- صحيح البخاري لمحمد بن إسماعيل البخاري - دار الجيل - بيروت .

٣٠- الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني الهجري ، دراسة في أصولها وتطورها لعلي البطل - ط الثالثة - ١٩٨٣م - دار الأندلس للطباعة و النشر .

٣١- طبقات الشعراء لابن قتيبة الدينوري ، تحقيق : أحمد محمد شاكر - ط الثانية - ١٩٥٨م - دار المعارف بمصر .

٣٢- طبقات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحي ، شرح : محمود محمد شاكر - مطبعة المدني - القاهرة .

٣٣- العقد الفريد لأحمد بن محمد بن عبد ربه الأندلسي ، تحقيق : د. عبد المجيد الترحيني - ط الأولى - ١٩٨٣م - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان .

٣٤- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبي علي بن الحسن بن رشيق القيرواني ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد - ط الخامسة - ١٩٨١م - دار الجيل للنشر والتوزيع - بيروت - لبنان .

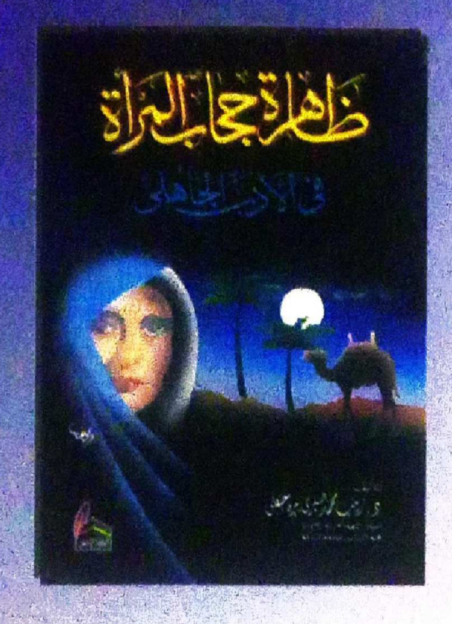
٣٥- فقه اللغة وسر العربية لأبي منصور عبد الملك بن محمد الثعالبي ، تحقيق : سليمان سليم البواب - دار الحكمة للطباعة والنشر - ١٩٨٩م - دمشق - سوريا .

٣٦- القاموس المحيط لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي - دار الكتاب العربي .

٣٧- لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم - دار صادر - بيروت .

٣٨- منتهى الطلب من أشعار العرب لأبي غالب محمد بن المبارك بن ميمون - ط١٩٩٣م - معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية في إطار جامعة فرانكفورت في ألمانيا الاتحادية.


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



من مؤلفات

د. زينب بيره جكلى

١ - النحو القصصى ١ - ٣.

٢ - ظاهرة حجاب المراة فى الأدب الجاهلى.

٣ - عندما يتوب ملك.

٤ - علمتنى زوجتى.

٥ - قدر أم حذر.

٦ - شريد عفيف.